

تداولية البلاغة العربية: (التجليات والأبعاد).

سلمى معلم^{1*} ، د. سفيان بوعينبة²

¹ - جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

malemsel@gmail.com

² - جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

s.bouaninba@univ-skikda.dz

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

الاستلام: 2021/08/08 القبول: 2022/03/23 النشر: 2022/03/30

الملخص: كشفت الدراسات البلاغية العربية الحديثة، التي أعادت قراءة التراث البلاغي العربي القديم وفق منظور البحث اللساني الغربي ونظرياته الحديثة، أن ما قدمته اللسانيات الوظيفية التداولية من خلال أحدث طروحاتها المتمثلة في التداولية، أنجع ما يمكن الاعتماد عليه لفهم البلاغة العربية فهما صحيحا وتقديمها في صورة حدائثة جديدة صالحة لخدمة مستعمل اللغة. فقد تميزت تلك البلاغة بأصول إبستمولوجية ذات طبيعة تداولية، وهو ما جعلها تتشاكل مع التداولية وتتقاطع معها في عدة محاور. استنادا لهذا التصور تحاول هذه الدراسة الكشف عن أهم تجليات تداولية البلاغة العربية.

الكلمات المفاتيح: البلاغة العربية، النظريات اللسانية، اللسانيات الوظيفية، التداولية، التجليات والأبعاد.

The pragmatic of Arabic rhetoric: (manifestations and dimension)

* المؤلف المرسل

Abstract: Modern Arab rhetorical studies revealed, that they re- reading the ancient Arab rhetorical heritage according to the perspective of western linguistic research and its modern theories, what the function pragmatic linguistics has presented through its latest proposals of pragmatic deliberation is the most reliable way to properly understand the Arabic rhetoric and present it in new modernist form valid for the service of the language user. That rhetoric was characterized by epistemological principles of a pragmatic nature, which made it interfere with it in several axes. Based on this perception, this study attempts to reveal the most important manifestation of pragmatic of Arabic rhetoric.

The Key words: Arabic rhetoric, linguistic theories, functional linguistics , pragmatic, manifestations and dimension .

1 - مقدمة: أفرزت الممارسة اللسانية للبحث اللساني الوظيفي التداولي واختباراته النوعية ، طرحا لسانيا إبستيمولوجيا جديدا مثلته ما يعرف بالتداولية اللسانية ، التي تمثل ذروة البحث اللساني الوظيفي التداولي . وهذا ما جاء في إطار مسعى بناء خطاب لساني غربي جديد ، يعني بصياغة النموذج اللغوي الأكفي الذي من شأنه دراسة اللغة دراسة دقيقة شاملة لجميع جوانبها (تركيبا ودلالة وتداوليا) ، وكذا مواكبة تطور مختلف المعاملات الاجتماعية التواصلية لمستعمل اللغة (كالتوثيق ، المعالجة الآلية للمادة اللغوية ، اكتساب اللغة ، تعليم اللغة ، الترجمة ، التوجيه اللغوي ، العلاج باللغة ..).

عنيت التداولية بمظاهر وتجليات الاستعمال الاجتماعي التبليغي للملكة اللغوية (linguistic competence) ؛ أي دراسة جانبها الإنجازي الديناميكي ، ليكون محور بحثها الرئيس الملكة التبليغية (communicative competence) لمستعمل اللغة ، التي تمكنه من استعمال اللغة في سياق تواصلية معين قصد أداء أغراض اجتماعية معينة. إذ لم يعد الوصف المحض لبنية اللغة ولا دراسة الملكة اللغوية وتفسيرها ، كافيان للإجابة

عن مختلف الأسئلة العالقة ، التي تطرح في إطار السعي لبناء خطاب لغوي تواصلية ناجح ،
يوصل ، ويؤثر ، ويقنع .

لقد نحا الدرس اللساني الغربي في إطار الطرح التداولي منحى جديدا ، اعتمدت في
خضمه بحوث واختبارات اللسانيين أدوات تحليلية ذات طابع تداولي ، اتخذت من بعد اللغة
الاجتماعي التواصلية (التداولية)؛ أي اللغة من حيث هي حدث كلامي تبليغي الموضوع
الأساس لدراساتها .

لقد فتح ذلك المجال لدراسة الكلام والوقوف على مختلف ما يحتك به من عناصر و
مؤثرات غير لغوية ، وذلك بعدما تم إبعادها في إطار لسانيات اللغة التي ظلت من خلالها
الدراسات اللغوية حبيسة الإطار اللغوي الصارم ؛ إذ إن السعي نحو إحراز العلمية بجعل
البحث اللساني بحثا علميا ، والعمل على صياغة قوانين عامة أو كلية صالحة للتطبيق على
جميع اللغات أثر سلبا على اللسانيات الغربية ، حيث ركزت على البعد اللغوي المحض مجردا
وبعيدا عن أي سياق خارجي ، وهو ما حدا إلى إبعاد الجانب الإنجازي للغة (الكلام أو
الإنجاز).

ركزت اللسانيات التداولية من خلال دراستها لبعد اللغة الاجتماعي التواصلية على
ضرورة ربط بنية اللغة بوظيفتها الأساس ، المتمثلة في التبليغ أو التواصل ، وما تقتضيه هذه
الوظيفة من شروط وعناصر غير لغوية يمثل فيها السياق مركز العملية التبليغية . فاللغة كما
أوضحت التداولية وحدات تبليغية منجزة في إطار سياق تواصلية معين ، وبناء على ذلك فإن
بنيتها تتغير بتغير سياقات مستعملها .

ذلك ما لم تهتم به البنوية - لا سيما في بحوثها الأولى - حيث جعلت من اللغة نظاما
شكليًا مغلقا على ذاته ، مؤكدة على ضرورة دراسته دراسة صورية لذاته ومن أجل ذاته ، وهو
الحال بالنسبة للتوليدية التحويلية حيث ركز تشومسكي (1928 Noam Chomsky -A) على دراسة بعد اللغة الذهني المجرد وأعفل البعد الإنجازي و السياق الخارجي ، "فقد أبعد أي
اعتبار يخص استخدام اللغة ووظيفتها ، فهو يهتم بنظرية الكفاءة أكثر من اهتمامه بنظرية
الأداء ، وهو ما يعني أن اللسانيات تهتم بالنواحي العقلية وتستبعد قدر الإمكان التلوث بآثار
الاستخدام والسياسات"¹ ، إذ يمثل الجانب الذهني للغة محور بحث النظرية التوليدية
التحويلية ؛ حيث يجب على البحث اللساني العلمي - حسب تشومسكي - الإحاطة بذلك
الجانب وفهمه فهما دقيقا ، قصد الإجابة المفسرة لمجموعة من الأسئلة من بينها: ما طبيعة
اللغة ؟ ، وكيف يتعلمها الطفل ؟ ، وكيف تتطور القدرة اللغوية ؟

حاول ممثلو التداولية - بالنظر إلى ذلك - وضع طريقة جديدة لدراسة اللغة يمكن من خلالها فهم اللغة فهما صحيحا ، وذلك باعتبارها سلوكا اجتماعيا أو علاقة اجتماعية ، بحيث يمثل فيها الكلام الذي يعكس صورة التفاعل الحي بين اللغة والمجتمع الطرف الفاعل بين المتخاطبين. وقد كان ذلك عاملا لدفع بعض الباحثين العرب لإعادة استكشاف البلاغة العربية ، واستنطاق مبادئها التي أثبتت طبيعتها التداولية. غير أن الإشكال الذي ربما يطرح نفسه على الباحث هو: فيما تجلت تداولية البلاغة العربية ؟

من هذا المنطلق عملنا على توضيح الرؤية التداولية والوقوف على تجلياتها في البلاغة العربية ، وفي سبيل الوصول إلى ذلك وقفت الدراسة على أربعة محاور ؛ تعرضت أولا لتعريف التداولية ، وبعدها إلى نشأتها ، ثم إلى مفاهيمها ، لننتقل بعدها لتوضيح أبرز تجليات تداولية البلاغة العربية ، وذلك من منطلق بعد اللغة الاجتماعي الذي يشمل أربعة أبعاد: (البعد المقامي ، البعد السياقي اللغوي ، البعد العلاقي ، البعد النفعي). لنصل من كل ذلك إلى أن: الرؤية التداولية للغة أساس ومنطلق التفكير البلاغي العربي ، الذي ركز على وظيفية اللغة وطابعها الاجتماعي ، وذلك ما يلخصه مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

2- تعريف التداولية:

لا يجد الباحث تعريفا جامعاً مانعاً للتداولية يلّم بجميع جوانبها ويشملها ؛ ويؤول ذلك إلى أسباب كثيرة من بينها: عدم اكتمال قضايا ومعالم الطرح التداولي ، واستمرار العمل على تطويره سعياً نحو بلوغ الكلية ، والسير جنباً إلى جنب مع تطور اللغة الاجتماعية ، واستثمار ما تفرزه العلوم المعرفية (علم النفس ، علم الاجتماع ، الأنثروبولوجيا ، العرفانية ...) والتكنولوجيا الحديثة من نتائج ، وهو ما جعل أصولها الإستمولوجية تجمع بين الرؤية القديمة والحديثة ، وذلك ما عُد نتيجة حتمية لاختلاف تخصصات باحثيه ، وهذا ما انعكس على تعريفهم للتداولية ؛ حيث انطلق كل باحث من مجال تخصصه .

هذا ما يلاحظ على تعريف شارل موريس charle mouris (1903 – 1979) الذي يعد أول محاولة لضبط ماهية التداولية ، إذ إن انطلاقه من مجال تخصصه السيميائي جعله يعرف التداولية ، على "أنها ذلك الجزء من السيميائية الذي يعنى بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعلي هذه العلامات ، وذلك على عكس علم التركيب الذي يهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ، وكذلك علم الدلالة الذي يدرس العلاقة بين العلامة وما تدل عليه"² ، وهذا ما يعني ارتباط دراسة التداولية بالسياق الخارجي من خلال ربط الخطاب به ، على عكس ما نجده في علم التركيب وعلم الدلالة حيث يعنيان بالسياق الداخلي (اللغوي).

ويرى فيليب بلانشيه philippe blanchet أن "مصطلح "التداولية" (pragmatique) على درجة من الغموض ، إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان "محسوس" و"ملائم للحقيقة". أما في الإنجليزية ، وهي اللغة التي كتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية فإن كلمة (pragmatic) تدل في الغالب على ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية"³ ؛ أي الأعمال التي تؤدي نفعاً وأثراً مادياً ملموساً بالنسبة لأصحابها.

ذلك ما ذهب إليه شارل ساندرس بيرس ch,S,peirse (1839-1914) - الذي يعد أول من استحدث كلمة تداولية - في مقاله الشهيرة: "كيف نجعل أفكارنا واضحة"، أين تطرق فيها إلى "توضيح طبيعة الفكر حين نربطه بعادات الإنسان الفعلية ، إذ يرتبط حسب رأيه بقيمتين: الأولى وفيها يكون الفكر مقترناً بالإدراك ، أما الثانية فتكون حين يؤدي الفكر نتيجة ملموسة"⁴ ، وهذا ما يعني أن مختلف استعمالاتنا اللغوية تعكس ما يجول في ذهننا من أفكار كثيرة ، ترتبط بمقاصدنا وهي ما نسعى إلى التجسيد الفعلي لها في معاملاتنا التداولية الاجتماعية اليومية ، من قبل من نتعامل معهم.

لقد أكد ذلك العديد من الدارسين إذ يعد الاستعمال وما يحاقله من مفاهيم ؛ كالعمل ، التجسيد الفعلي ، الإنجاز ، الأداء ، التفاعل الاجتماعي ، علاقة اللغة بالمجتمع أو الواقع المادي الخارجي (بحدوده الزمانية والمكانية) ، أهم ما يوضح ماهية التداولية ، التي عُرفت بالنظر إلى ذلك "بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعني به تحديداً اللسانيات"⁵ ، ويمكن القول إن التداولية تركز على دراسة النظام الوظيفي التداولي الذي يميز استعمال اللغة ، وذلك ما يرتبط ارتباطاً مباشراً بالمقام التواصلية بعناصره وخصائصه المختلفة.

فمدار المقاربة اللسانية التداولية الملكة التبليغية (أو التواصلية) لمستعمل اللغة ، التي تتجسد إثر استعمالها في مقامات تواصلية ؛ "إذ تنطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطائية وتواصلية معاً"⁶ ، فهي "الدراسة التي تعني باستعمال اللغة ، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية و المقامية و الحديثة و البشرية"⁷ ، وذلك تجاوزاً لمنطية البحث اللساني الشكلي ورؤيته الضيقة في دراسة اللغة ، حيث يعمل وفق مبدأ استقلال التركيب.

3- نشأة التداولية:

تبلور الطرح التداولي نتيجة لتراكم العديد من التصورات التي ساهمت في تقديمها علوم ونظريات معرفية مختلفة ؛ فلسفية ، اجتماعية ، لسانية .. ، حيث شاركت كلها بطريقة أو

بأخرى في إيضاح علاقة اللغة بالمجتمع ، وفتح المجال لدراسة بعد اللغة الاجتماعي التواصلي الذي يعكس وظيفية اللغة ، والوقوف على مختلف ما يحتك به من " مستويات متداخلة ، كالبنية اللغوية ، وقواعد التخاطب ، والاستدلالات ، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال"⁸ ، وغير ذلك من الجوانب التي ترتبط بذلك البعد .

لقد اعتمد هذا الطرح في بناء رؤيته للغة ، ومختلف تقنياته التي ميزت منهجية بحثه اللغوي وكيفية تعامله مع اللغة ، على مرجعيات معرفية متعددة ، وهو ما جعل " لكل مفهوم من مفاهيمه الكبرى حقل معرفي انبثق منه ؛ ف "الأفعال الكلامية" مثلا، مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي عام هو تيار "الفلسفة التحليلية" بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا ، وكذلك مفهوم نظرية المحادثة الذي انبثق من فلسفة بول جرايس Grice ، و أما نظرية الملاءمة فتؤول إلى علم النفس المعرفي"⁹ .

وتعد فلسفة اللغة أهم المرجعيات التي أسست للتداولية " فقد كانت الفلسفة تهتم باللغة منذ القديم ، وكان البلاغيون القدامى تداوليين ، إذ كانوا يفكرون في الصلات القائمة بين اللغة والمنطق وخاصة المنطق الحجاجي ، من جهة ، وأثار الخطاب في السامع ، من جهة أخرى ، وقد طوروا منذ أفلاطون وأرسطو ، ووصولاً إلى سينك وشيشرون وكوسيليان ، منوالا كلاسيكيا للبلغة يقوم على معرفة الانفعالات والطبائع"¹⁰ ، مبينين أن قيمة الخطاب البلاغي تكمن في مدى قدرته على التأثير الانفعالي الإيجابي .

لقد عرفت الفلسفة من خلال دراساتها اللغوية آفاقا جديدة استطاعت أن تفتح من خلالها المجال لظهور الطرح التداولي ، وهو ما توضحه بحوث فلسفة اللغة التحليلية ، التي اهتمت بدراسة اللغة محاولة تغيير منهجية البحث الفلسفي ؛ موضوعا وممارسة وهدفا .

وقد ظهرت بحوث هذه الفلسفة من خلال "أعمال الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني (فريج G. frege) ثم الفيلسوف وعالم الرياضيات البريطاني (روسل B. russel) ، اللذين طورا كثيرا من قضايا الفلسفة التحليلية ، وهي التي أنتجت فيما بعد الفلسفة الأوستينية في اللغة ، من خلال تناولها للقضايا التداولية"¹¹ ، إذ تطرقوا لقضية الدلالة التداولية عبر ربط المعنى بملازمات الخطاب ومقتضيات استعماله ، وقد التفتوا عبر ذلك لبعض القضايا التداولية: كقضية المعنى المضمّر ، و الإحالة ، والاقتضاء ، وغيرها .
وتتميز فلسفة اللغة التحليلية بجملة من الخصائص أهمها:¹²

1- فكرة مركزية اللغة بالنسبة للفلسفة إذ يعتقد الفلاسفة التحليليون أن قضايا الفلسفة يمكن فهمها فهما جيدا عن طريق العناية باللغة ، وهذا الاتجاه نحو الاهتمام باللغة ، أصبح ليس الفرق الفلسفي (التحول اللغوي) وهو أصدق ما توصف به الفلسفة التحليلية.

2 - الاعتماد على المنهج التحليلي سواء اتخذ هذا المنهج صورة التحليل المنطقي أو التحليل اللغوي.

3 - احترام نتائج العلم والحقائق التي يسلم بها الحس المشترك ، وأخذها بعين الاعتبار عند معالجة المشكلات الفلسفية.

ساهمت البحوث التي قدمتها فلسفة اللغة في وضع نواة الطرح التداولي ، وتعد أعمال فلاسفة أكسفورد من أهم العوامل التي شاركت في تطور هذا الطرح ، لا سيما أعمال جون أوستين **John Austin** (1911-1961) الذي اعتمد في ذلك على محاضرات **وليام جيمس** **william james** (1842-1910) ، وقد "ألفها عام 1955 وذلك على الرغم من أنه لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات إنما كان يهدف إلى تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة ، بيد أن محاضرات وليام جيمس ستكون كذلك بوتقة التداولية اللسانية"¹³.

لقد أسهم التطور الذي عرفته التداولية في تعدد اتجاهاتها ، حيث تم تصنيف أنواع أو أشكال كثيرة ، بحيث يهتم كل نوع بجانب معين من استعمال اللغة ، وذلك ما يمكن توضيحه من خلال ما جاءت به أركيوني التي ميزت بين ثلاث تداوليات أساسية متجاورة¹⁴ هي:

أ - التداولية التلفظية pragmatic enunciative : أو لسانيات التلفظ مع شارل موريس ، و تهتم بوصف العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ ، وبعض خصائص الجهاز التلفظي التي يندرج ضمنها الملفوظ (مرسل - متلقي - وضعية التلفظ).

ب - التداولية التخاطبية pragmatic illocution: أو نظرية أفعال اللغة مع أوستين وسيرل (John Searle) ، وتخصص لدراسة القيم التخاطبية داخل الملفوظ ، والتي تسمح له بالاشتغال كفعل لغوي خاص.

ج - التداولية التحوارية pragmatic conversational: نتج تطورها الحديث جدا عن استيراد الحقل اللساني للأفكار المؤسسة أصلا من لدن الأثنولوجيين وإثنوميتودولوجيي التواصل ، وهي تهتم بدراسة اشتغال هذا النمط من التفاعلات التواصلية (الحوارات).

4- مفاهيم التداولية:

تتميز المقاربة اللسانية التداولية بمجموعة من المفاهيم أهمها:

4-1 - الفعل الكلامي: (speech act)

وهو المفهوم الذي وضعه جون أوستين وذلك من خلال محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد Harfad، ونشرت سنة 1962 في كتاب عنوانه (how to do think with words)، وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية عام 1970 إلى (Quand dire c'est faire).

يمثل الفعل الكلامي في فلسفة أوستين " كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. فضلا عن ذلك، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والأمر والوعد والوعيد...الخ)، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول). ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسستيا، ومن ثم إنجاز شيء ما.¹⁵، فالتأثير الإيجابي- بأبعاده المختلفة - في المتلقي معيار نجاح الفعل الكلامي.

ويتكون الفعل الكلامي الكامل حسب أوستين من أفعال ثلاثة هي:¹⁶

أ- فعل القول: ويتضمن بدوره ثلاثة أفعال لغوية ثلاثة: فعلا صوتيا وفعلا تركيبيا وفعلا دلاليا، إذ يشكل الفعل الصوتي التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة. والفعل التركيبي تأليف مفردات طبقا للقواعد التركيبية للغة معينة، والفعل الدلالي استعمال هذه المفردات حسب دلالات وإحالات معينة.

ب - فعل الإنجاز: وهو الفعل المعبر عن قصد المتكلم من تلفظه بالعبارة، كأن يخبر أو يسأل أو يعد أو يندر.

ج - فعل التأثير الكلامي: أي الأثر الذي يخلفه التلفظ بالعبارة لدى المخاطب، كأن يستبشر أو يفعل أو يطرب أو يغضب.

إذن يتجاوز مقياس المنفعة في أي عملية اجتماعية تواصلية عبر فعل كلامي ما (جملة، أو خطاب أو نص)، من منظور نظرية الأفعال الكلامية ووظيفة الإخبار ونقل معلومات ما عن موضوع معين، إذ يتوقف الأمر على قوة التأثير في المتلقي ودفعه للقيام بعمل أو فعل ما، وقد أكدت على ذلك من منطلق تناولها للغة، باعتبارها حدثا كلاميا تبليغيا ذات فعالية اجتماعية، حيث يُستهدف من ورائه بلوغ نتائج وأغراض نفعية.

4-2 - الملفوظية: (Enunciation)

وهي "ترجمة للمصطلح الفرنسي Enonciation الذي أشار إليه الألسني السويسري شارل بالي (1865 — 1947) في كتابه (اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية)"¹⁷.

تأسست فكرة الملفوظية من "خلال ما قدمه بنفنست في خضم شرحه لثنائية سوسير لغة /كلام حيث بين أن ثمة فرقا عميقا بين اللغة بوصفها نظاما من الأدلة ، واللغة بوصفها ممارسة يضطلع بها الفرد ، وهذا المستوى الأخير هو أساس تحليل الخطاب في نظره خلافا لمذهب سوسير"¹⁸ ، فقد ركزت الملفوظية على اللغة باعتبارها إنجازا ، وليست ملكة أو كفاءة فطرية مخزنة في ذهن مستعمل اللغة ، إذ استطاع إميل بنفنست تغيير نمطية التفكير اللساني وبحوثه التي ظلت من خلال الفصل أو التمييز السوسيري الصارم ، بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام تتحرك في إطار ما يفرضه المجال الأول ؛ أي لسانيات اللغة التي اختزلت عمل اللسانيين في ضرورة دراسة اللغة وتحليلها بعدها نظاما أو بنية صورية ، وهو ما أفضى إلى إقصاء الكلام وظروف إنتاجه وبالتالي عدم دراسة وقائعه .

هذا ما انتقده بنفنست مؤكدا على أهمية دراسة الكلام ، كما ساهم في بناء لسانيات الكلام وتعميقها من خلال بحثه في التلفظ .

وقد تم التفريق من خلال ذلك بين الملفوظ "وهو متتالية متحققة فعلا ، أي هو تعلق مخصوص لكيانات لسانية"¹⁹ ، وبين التلفظ الذي هو إنتاج الملفوظ ، ويعرفه إميل بنفنست **Emile Benveniste** (1902 - 1976) بأنه "إجراء اللغة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال"²⁰ ؛ أي التحقيق أو الإنجاز الفردي للغة صوتا أو كتابة ، و"يمكن ملاحظة الفرق بين الملفوظ والتلفظ ، ما إن نتأمل التباس عبارة ، مثل أدهشتني رسالته: هل وجدت نص الرسالة ذاته ، مدهشا ، أم إن الملفوظات التي تتكون منها هي المدهشة ، وما هي الملفوظات التي تحتوي علامات أخاذاة ؟ أم هل التي اندهشت بسببه أن تلك الرسالة قد كتبت لي كما هي ، والحال أن كاتبها لا يكتب لي رسائل في العادة ، أو أنه يبعث لي رسائل من نوعية أخرى ؟ ففي الحالتين الأخيرتين ما فاجأني هو التلفظ لا الملفوظ . هكذا ندرك التلفظ بوصفه انبثاقا للملفوظ"²¹ . ووجودا له ، ينقله من وضعه السكوني إلى مجال التحقيق الصوري الوظيفي .

4-3- متضمنات القول: (Implicits)

وهو "مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب ، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره"²² ، ومن أهمها :

(أ) الافتراض المسبق: (Presupposition)

تقول أركيوني **kerbar k. k Orecchioni** في خضم حديثها عن الافتراض المسبق: "نصنف في خانة الافتراضات كل المعلومات التي ، وإن تكن مقررة جهرا (أي تلك التي لا

تشكل مبدئياً موضوع الخطاب الكلامي الحقيقي الواجب نقله)، إلا أنها تنتج تلقائياً من صياغة القول التي تكون مدوّنة فيه بشكل جوهري بغض النظر عن خصوصية الأداء التعبيري الأدائي²³، ويعد الافتراض المسبق من أهم الركائز التداولية التي تقوم عليها العملية التواصلية، ويتمثل في مختلف المعارف المسلم بها من قبل المتخاطبين؛ أي ما يفترض كل طرف معرفته عن الطرف الآخر، إذ ينطلق المتكلم - مثلاً - في توجيه خطابه مما يفترض مسبقاً أنه معلوم لدى المتلقي.

ففي جملة: رجع أحمد من السفر، الذي يتم فيها إخبار أحدهم برجوع أحمد. يمكن القول إن منتجها يفترض مسبقاً أن الشخص المُخَبَّر (المُخاطَب) يعرف أحمد، وأنه على علم بأنه قد كان مسافراً.

(ب) القول المضمّر: (Implied saying)

وهو ما "يمكن أن يوصف .. بالتأويل، وعلى سياق الخطاب إبراز خصوصيته، ففي قولنا "اقترب فصل الشتاء"، يمكن أن يؤول إلى:

- الاستعداد للبرد القارس.

- تحضير الملابس الخاصة بهذا الفصل.

- تهيئة الطعام...

فقد خرج الملفوظ عن معناه الحقيقي إلى عدة معاني استنتاجية ذهنية يجتهد المتلقي في التعرف عليها²⁴، عبر آليات التأويل والاستدلال، التي تتيح إمكانية كشف ومعرفة المعاني الحقيقية المقصودة من وراء ذلك الملفوظ.

4-4 - الاستلزام الحواري: Conversational Implicature

وهو المفهوم الذي يوضح إمكانية احتمال الجملة في بعض المقامات، على معنى آخر غير المعنى الذي يحمله شكل الجملة الحرفي (الظاهر)، ويرتبط ظهور هذا المفهوم بالفيلسوف الإنجليزي بول جرايس H. paul Grace (1913- 1988).

ويمكن تلخيص تصوره عن الاستلزام الحواري من خلال النقاط التالية:²⁵

- يرى جرايس أن كل حوار يقوم على مبدأ عام، يخضع له كل من المتحاورين بحسب إسهامه في الحوار، وهو ما يسميه مبدأ التعاون.

- ويتفرع عن هذا المبدأ العام قواعد أربع: قاعدة الكم وقاعدة الكيف وقاعدة الورد وقاعدة الكيفية، وهي قواعد تضبط التخاطب في المقامات العادية.

- ويقترح جرایس أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي انطلاقاً من مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه ، باعتبار أن مصدر الاستلزام هو الخرق المقصود لإحدى القواعد الأربع مع احترام المبدأ العام (مبدأ التعاون).

لقد اهتمت التداولية بمرحلة التحليل ؛ أي فهم معنى الخطاب ومعرفة مقصدية المتكلم ، التي تكون بين الظاهر الصريح والمضمر الذي يعد عدولاً مقارنة بالأول ، وذلك ما وقف عليه غرایس في نظريته ، إذ عني فيها بتوضيح كيفية التعامل مع ظاهرة العدول أو الخرق الذي يسم الخطاب أحياناً ، مما يعيق سرعة حدوث عملية التواصل ، حيث بين أن القصد والمعنى المضمر نتيجة لخرق أحد قواعد مبدأ التعاون .

4-5 - الحجاج: (Argumentation)

يعد الحجاج أحد المباحث الكبرى التي تمثل الطرح التداولي ، ويهتم "بدراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم ، مما يعرض من طروحات ، أو أن تزيد في ذلك"²⁶ ، أي التأثير فيهم بدفعهم إلى قبول طرح أو وجهة نظر ما .

فالحجاج تقنية تواصلية خطابية يلجا إليها المخاطب ، قصد دعم موقفه وإقناع المتلقي (أو المتلقين) بفكرة ما والتسليم بها ، أو دفعه إلى اتخاذ سلوك ما ، وحسب ما يذهب إليه بعض الباحثين "يمكن أن تعد اللغة بذاتها ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها: ويظهر ذلك في نظام بنيتها ، لأن المتكلم يستخدم الوحدات اللسانية ، حسب ما يريد إبلاغه من أفكار ، وبالقدر المقصود ويبني هذه الوحدات وفقاً لأغراض التواصل المختلفة"²⁷ ، حيث يركز دائماً على تطويع اللغة حسب ما يريد ، وهو ما يُمكنه من بناء خطابات تداولية اجتماعية كثيرة متباينة الأنماط والأغراض ، فنجد من بينها الخطاب الحجاجي الذي يرتبط بغرض الإقناع .

²⁸ ويتميز الحجاج بأنه فعل:

- تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ، ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية ويهدف إلى الإشراك جماعياً في إنشاء معرفة عملية ، إنشاء موجهها بقدر الحاجة .

- جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة ، كأن تبني الانتقالات فيه لا على صور القضايا وحدها بل على هذه الصور مجتمعة على مضامينها أيما اجتماع ، وأن يقود في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج .

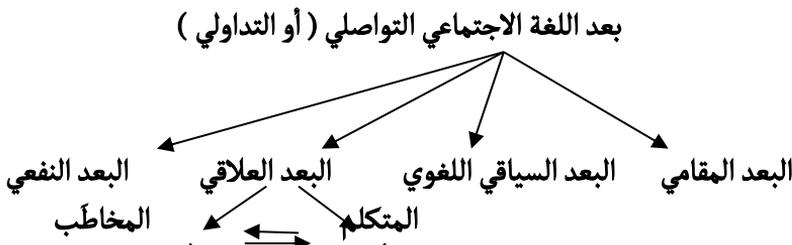
5- تجليات تداولية البلاغة العربية:

أوضحت الدراسات الحديثة أن الاستراتيجية اللسانية التي قدمها الطرح التداولي ذات منحنى تقاطعي، حيث تتقارب مع التداولية العديد من البحوث والاتجاهات اللغوية التي اهتمت ببعدها اللغوية الاجتماعي التواصلي.

لقد لوحظ وبالنظر إلى البحث في كل ماله علاقة بأبعاد وعناصر وتجليات الملكة التبليغية، لمستعمل اللغة أن البلاغة أهم تلك الاتجاهات، ولعل التركيز على دراسة الكلام - الذي يعكس استعمال اللغة كعلاقة اجتماعية تواصلية - مرتبطا بسياقه الخارجي، وظروف إنتاجه، وشتى العناصر والأطراف المتفاعلة في خضم ذلك، أهم ما يوضح تعالق البلاغة مع التداولية.

فلا فرق - حسب بعض الباحثين - بين البلاغة والتداولية، إذ يتم التعامل مع اللغة في كلا الاتجاهين باعتبارها فعلا تبليغيا، يحمل مقاصد وأغراض المتكلم التي يروم من خلالها التأثير في المخاطب (أو إقناعه)، وكما يرى "ليتس فإن البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع"²⁹، وهذا ما ينطبق على البلاغة العربية التي تناولت دراساتها اللغة كسلوك اجتماعي تبليغي، يخضع فيه المتخاطبان لشروط التخاطب والتبليغ، التي يعد فيها مراعاة مفهوم المقام أو مقتضى الحال الشرط الأساس، وهو المفهوم الذي يوضح المنحنى التداولي الذي انتهجته البلاغة العربية، وحسب ما يذهب إليه صلاح فضل: "يأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)"³⁰.

ويمكن توضيح تداولية البلاغة العربية من خلال بعد اللغة الاجتماعي التواصلي، الذي يتضمن بدوره - حسب رأينا - أبعاد فرعية: بعد مقامي، بعد سياقي لغوي، بعد علاقي، بعد نفعي، كما هو موضح في الشكل الآتي:



تفاعل

(أ) شكل يوضح الأبعاد الفرعية لبعده اللغة الاجتماعي التواصلي (أو التداولي).

5-1- البعد المقامي:

أكد الدرس البلاغي العربي القديم أن للمقام (أو سياق الحال) دورا بالغ الأهمية في تفعيل العملية التبليغية ونجاحها ((إنتاجا) و(تلقيًا) (فهما وتأويلا)*) . إذ يعد المقام الأداة الفاعلة التي تتحكم في صياغة الخطاب ، كما توضح في الوقت نفسه صورة استعمال اللغة بطريقة مرنة يتعاقب فيها ما هو لغوي بغير اللغوي ؛ أي مختلف العناصر والظروف الخارجية التي يفرضها التواصل الاجتماعي.

إن المرتبة الرفيعة التي يحتلها المقام في الفكر البلاغي العربي القديم جعله يمثل قطب الرحي ، التي تتأسس بناء على مراعاتها بلاغة الكلام ، وهو ما دفع العديد من البلاغيين إلى تحديد ماهية البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وفي الواقع يمثل مراعاة المقام (وما يفرضه من ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال) قاعدة التبليغ ونمطية التداول اللغوي ، التي اطرقت في المعاملات اللغوية الاجتماعية داخل المجتمع العربي القديم ، فكانت بذلك من أهم الأسس المنهجية والإبستمولوجية ، التي ميزت التراث اللغوي بصفة عامة والبلاغي منه بصفة خاصة.

يتضح هذا جليا من خلال أدبيات بلاغيينا القدامى ، ففي صحيفة **بشر بن المعتمر** (ت 210 هـ) التي أوردها **الجاحظ** (ت 255 هـ) في مؤلف (البيان والتبيين) ، تشديد على ضرورة احترام مبدأ ربط الكلام بمختلف الظروف والأحوال المقامية التي تؤثر في عملية الإنجاز ، إذ يعد توخي عنصر المقام أحد المعايير الرئيسة التي تساهم في تحقيق مقبولية الكلام وقيمته ، فحسب ما يراه بشر بن المعتمر "ليس شرف المعنى بأن يكون من المعاني الخاصة وليس وضاعته بأن يكون من المعاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال"³¹ ، فمراعاة ظروف التواصل عبر الخضوع لخصائص الوضع التخاطبي المقامي ، مدار المزية والشرف الذي يشارك في التأسيس لبلاغة الخطاب.

يعد ربط الكلام بمقامه التواصلي حتمية يفرضها التبليغ (أو التواصل) بعدّه علاقة وتفاعلا اجتماعيا ، يتم بين طرفين في إطار سياق اجتماعي تواصلي معين ، تضبطه سنن

وأعراف لغوية اجتماعية محددة ، إذ تنتقى بناء على ذلك وحدات الكلام (الخطاب) وتصاغ بنيته ، بالنظر إلى ظروف وعوامل خارجية (يفرضها الواقع الخارجي على اختلاف خصائصه) ، تكون في الغالب الكثير معيارا لاستقامة الكلام واستحالاته ، ليتعدى ذلك إلى تصديق فحواه وقبوله أو تكذيبه ورفضه .

لقد ركز الجاحظ - كذلك - على فكرة المقامية التي شكلت مناط تفكيره البلاغي ؛ حيث عمل على توضيح مدى عمق بعدها التأثيري في صناعة الكلام ، وتأکید مركزية مبدأ الملائمة (أو المناسبة) بين المقال والمقام ، و "لعل أبرز ما يدل على أهمية هذا المتصور ، في مؤلفاته ، كثرة المصطلحات المستعملة لبيان معناه ، وإفراز جملة من المستخلصات العملية توجه المتكلم إلى الطريق التي يجب اتباعها في صناعة الكلام. فمن المصطلحات المتواترة "المقام" و"الموضع" و"الحال" كذلك "الأقدار" أو "المقدار" و"المشكلة" و"المطابقة" وجميعها فروع عن أصل ثابت في تفكيره وإن لم يتبلور على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة "المناسبة" و"الملاءمة"³²، وهي الفكرة التي يضمن توفرها في العملية الخطابية التواصلية - إلى جانب شروط البيان التي تتعلق بالسياق اللغوي - حصول البيان والتبين .

تأكدت تداولية الخطاب البلاغي العربي القديم الذي اتسم برؤيته الاجتماعية الوظيفية ، إذ ارتكز منذ نشأته على الوعي بضرورة مراعاة قاعدة الربط بين الكلام ومقامه التواصلية ، من خلال ما قدمه بلاغيون آخرون لعل من بينهم: **عبد القاهر الجرجاني** (ت 471 هـ) الذي أوضح بطريقة عقلية دقيقة قيمة المقام الإجرائية ، وقد أبان عن المعنى الذي تعبر عنه مقولة (لكل مقام مقال) ، معتمدا في ذلك على استراتيجية (الوجوه والفرق) ، التي شكلت محور تفكيره البلاغي. وفي هذا الصدد نجده يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك "زيد منطلق" و"زيد ينطلق" و"المنطلق زيد" و"زيد هو المنطلق" و"زيد هو منطلق" وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن "تخرج أخرج" و"إن خرجت خرجت" و"إن تخرج فأنا خارج" و"أنا خارج إن خرجت" و"أنا إن خرجت خارج" ... فيعرف لكل من ذلك موضعه ويحيى به حيث ينبغي له"³³.

فقد وقف الجرجاني هنا على قيمة الطبيعة الإبدالية أو التحويلية التي تتميز بها اللغة العربية؛ إذ ينتج بفضلها المتكلم العديد من الوجوه التركيبية التي تتباين دلالتها ، أين نقف

على ما يعرف بخاصية الفروق الدلالية، ليؤكد في خضم ذلك أن الوصول إلى النظم المثالي من خلال استراتيجية الوجه والفروق أمر متوقف على اتباع ما يفرضه المقام.

ولأبي يعقوب السكاكي (ت 626 هـ) دور بارز في تثبيت فكرة المقام وما يتطلبه من ضرورة مراعاة مقتضى الحال، وبيان دورها المنهجي الاستراتيجي الفاعل في عملية التبليغ تنظيميا، وهيكلة، ونجاحا؛ حيث يقول في خضم ذلك: "فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليلته بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب.."³⁴ فاجعل كلامك مطابقا لمقتضى الحال هو ما أراد السكاكي قوله لمستعمل اللغة، إذ يمثل ذلك قانون الكلام الناجح.

وقد شكل المقام (السياق الخارجي) مدار اهتمام علم استعمال اللغة، حيث تأسس على مبدأ ربط بنية اللغة بسياق استعمالها التواصلي، إذ يرى التداوليون من هذا المنطلق أن سمات وخصائص البنية (الخطاب) إنما هي انعكاس لها تقتضيه وظيفة التواصل، من عناصر خارجية غير لغوية مرتبطة بسياق التواصل.

إن دراسة التداولية اللسانية للغة من حيث هي استعمال وتفاعل اجتماعي تواصلي، إنما هو دراسة استعمال اللغة ضمن السياق، وعلى هذا الأساس "يرى ماكس بلاك (maxblak) أن التداولية يجب أن تسمى بالسياقية (contexique)"³⁵، وقد "تبني (ستالنا كروجاك) تعريفا للتداولية مفاده أن التداولية دراسة خضوع القضايا للسياق"³⁶، حيث تركز على مدى مطابقة قضايا الخطاب للسياق الذي ينتمي إليه.

5-2 - البعد السياقي اللغوي:

استأثر السياق اللغوي (الخطاب) الذي يمثل العنصر الأساس الذي بُني من خلاله عملية الإنتاج اللغوي، باهتمام الدرس البلاغي العربي القديم؛ حيث عمل ممثلوه على وضع مجموعة من المعايير والشروط التي أكدوا على ضرورة توخيها، وذلك قصد التمكن من صياغة كلام بليغ. ولعل هذا ما يلاحظ جليا على ما يمكن عده الاستراتيجية التي شكلت أغلب أدبيات البلاغة العربية القديمة، وهي ما تتمثل في الحديث عن مقاييس وشروط بلاغة الكلام وفصاحته.

لقد بينوا للمتكلم (شاعرا كان أم خطيبا)، أنه يجب اختيار ألفاظ عباراته بدقة، ومراعاة فصاحة خطابه، وسلامته من العيوب التي يمكن أن تدخل على مفرداته كالغرابة

والوحشية ، والسوقية ، والابتذال ، ومن العيوب التي يمكن أن تدخل عليه مركبا كعدم التلاؤم بين الألفاظ بعضها ببعض ، وعدم تناغم المعاني واتساقها، إذ يجب الحرص على بناء الخطاب ونظمه نظما جيدا، مما يجعله متميزا عن غيره حيث يتم الحكم عليه بالجودة والبلاغة.

تتلور عملية البناء اللغوي للخطاب - حسب ما بينوه - من خلال الاعتماد على عدة آليات وإجراءات³⁷؛ ونقصد بذلك آلية الاختيار الجيد للمعاني والألفاظ والعبارات ، التي تقوم بدورها على آلية الملاءمة الدقيقة بين: (المعاني)، و(بين المعاني والألفاظ)، و(بين الألفاظ والألفاظ) وهي المرحلة التي تظهر فيها آلية التعليق أو التركيب ، ومن خلالها يتضح انتظام النسق اللغوي. وهذا ما يؤدي إلى توضيح حقيقة اعتماد المتكلم في عديد ملاءماته وإجراءاته على قوانين نظام لغته: الصوتية ، النحوية ، المعجمية ، الدلالية.

5-3- البعد العلاقي:

وهو البعد الذي يهتم بثنائية متكلم / مخاطب ويؤكد على ضرورة الحرص على مبدأ العلاقة بينهما ، وذلك باعتبارهما الطرفين الأساسيين في العملية التواصلية.

(أ) المتكلم:

مثل الاهتمام بالمتكلم ومختلف ما يتصل به ، أحد أهم المسلمات والمبادئ الأولية التي طبعت الفكر البلاغي العربي القديم ، ذلك أنه منتج الخطاب وما يحويه من مقاصد وأغراض ، وكذا مركز الفاعلية والتأثير والخلق الإبداعي ، وشتى صور وتجليات الملكة التبليغية ، التي تعمل على نقل اللغة من طابعها السكوني إلى مجال الحركة والتفاعل الاجتماعي ، الذي يُراد التعبير من خلاله عن مقاصد متعددة.

ف " اللغة وسيلة من وسائل الاتصال التي يعبر بها كل عن مقاصده ولا تظهر تلك اللغة إلى الوجود دون استعمال المرسل لها وتحديدها من الوجود المضمحل بالعقل إلى الوجود المعلن بالفعل لذلك يعد المرسل محور إنتاج الخطاب ، سعيا إلى إشباع رغباته واهتماماته ، وكل ذلك من أجل أن يعبر عما يجول في نفسه من مقاصد وغايات يسعى إلى تحقيقها من خلال خطابه"³⁸، الذي يركز فيه على التأثير في الآخرين. ف " للمتكلم دور بارز في البلاغة العربية القديمة ، بوصفه منتج الخطاب وباعثه ، ولأنه الذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها ، بل إن المعنى في كثير من الحالات مرتبط بما ينويه وما يقصده"³⁹، حيث يتوقف فهم المعنى على معرفة القصد؛ كما يرتبط حصول النتيجة المبتغاة من الكلام بمعرفة المتلقي لقصد المتكلم.

على هذا الأساس عد التركيز والوقوف على مقصدية المتكلم في ثرائنا البلاغي مطلباً ضرورياً، إذ إن الوصول إليها هو وحده ما يضمن في الغالب حصول الفهم، لتكون بذلك أساس التواصل والإبلاغ، وهو ما يعكس في الوقت نفسه أهمية المتكلم وسلطته. يتوقف نجاح المتكلم في إيصال مقاصده بدرجة كبيرة على مدى نجاعة وقوة آلية الإفهام لديه؛ فهي ما تعكس مهارته وقدرته التبليغية والتداولية، التي يتمكن من خلالها من الإبلاغ والتأثير والإقناع. وقد استأثر هذا الجانب بدراسة البلاغة العربية؛ حيث عنيت بقضية الإفهام، وركزت على توضيح ما تتطلبه على المتكلم من مبادئ وشروط تُفرض عليه في إطار العملية التبليغية، أبرزها:

1- مبدأ الاختيار:

إن البيان الذي يعد معياراً لقبول الكلام وبلاغته لن يتيسر وصول المتكلم إليه بسهولة، بل يتطلب ذلك قوة الأداء ودقة التعبير، ليقضي ذلك منه حسن اختيار (أو انتقاء) الألفاظ والعبارات الواضحة المعبرة التي يستطيع من خلالها إيصال المقاصد والأغراض على أكمل وأتم وجه.

2 - مبدأ الملائمة:

إن الملائمة تقنية يتوسلها المتكلم في بناء خطابه التبليغي، ومن خلالها يضطر هذا الأخير إلى مراعاة المطابقة بين عدة عناصر هي:

أ - الملائمة بين اللفظ والمعنى

ب - الملائمة بين الألفاظ وكذا بين الجمل والعبارات

ج - الملائمة بين الكلام والمقام

د - الملائمة بين الكلام وأحوال المخاطب (أو المخاطبين) (الاجتماعية، النفسية، الثقافية)؛ فللمخاطب دور رئيس في صياغة الكلام (معناه ومبناه) ولهذا فإن "بناء الخطاب وتداوله أمر مرهون، إلى حد كبير، بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال. إذ يعد الافتراض المسبق ركن ركين في البلاغة العربية"⁴⁰، وهو ما أقرته حديثاً البحوث التداولية.

يعد معرفة نوع المخاطب وحالته (الاجتماعية، النفسية، الثقافية) عند بلاغينا القدامى شرطاً ضرورياً، لا بد على المتكلم من توحيه، وفي هذا الصدد يقول أبو هلال العسكري (ت 395 هـ): "وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. واعلم أن المنفعة مع موافقة

الحال وما يجب لكل مقام من المقال"⁴¹، ومعنى ذلك أن حصول موافقة الكلام لمقتضى الحال، أهم مقياس، يضمن حصول المنفعة التي تكون مشتركة بين المتكلم والمخاطب. وقد "لخص الجاحظ جملة ما على المتكلم اعتباره في مخاطبه في عبارتين هما: "مقدار الطاقة" و"أقدار المنزلة"، ويبدو أنه يشير بالأولى إلى زاده اللغوي ومنزلته في العلم، وهي رهينة حاجاته وانتمائه الطبقي، بينما يشير بالثانية إلى رتبته في السلم الاجتماعي وحظه من الجاه والسلطان. وقد يجمع المؤلف بينهما كقوله: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"⁴²، فضرورة مراعاة المتكلم لدرجة مخاطبه اللغوية والثقافية وطبقته الاجتماعية، مبدأ التخاطب الرئيس حسب رأي الجاحظ، وهو المبدأ الذي شدد على أهميته كل البلاغيين.

(ب) المخاطب:

إن ارتباط بناء وتوجيه الفعل الإنتاجي للخطاب، وكذا آلية تداوله ونجاح استمراره بالمخاطب (أو المتلقي)، هو ما جعل لهذا الأخير دورا فعالا في العملية التواصلية لا يقل شأنًا عن دور المتكلم؛ ف"لئن كان المتكلم هو منشئ الخطاب ومنتجه، ويسمه بكثير مما يميزه متكلما عن الآخرين، فإن السامع هو من يُنشأ له الخطاب ومن أجله، وهو مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة، وإن لم تكن مباشرة؛ فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب، وأحوال السامع، وأشكال إلقاء الخبر إليه، وأنماط الطلب التي ينشئها... وما إلى ذلك من ظروف الحديث المختلفة، فهو إنما يستحضر السامع في كل عملية إبلاغية، ولو بصورة ذهنية إن لم يكن حاضرا عيانا"⁴³.

فمن البديهي وجود المخاطب في عملية التبليغ، إذ يستحيل وذلك حسب ما أثبتته التجارب الواقعية، أن يكون لخطاب المتكلم صدى وفعالية التأثير ومن ثمة إحراز المنفعة، إن لم يكن الهدف من إنتاج الخطاب توجيهه لمخاطب ما، يقوم بتحليل رموزه وتفكيك شفراته وتأويل معانيه.

من هذا المنطلق ارتبطت حركية الخطاب بفعل التلقي، وعلى هذا الأساس ف"إن ما يذكر بشأن المتكلم لا يستقيم إلا بدور السامع؛ حتى إن ما يرتبط بقصد المتكلم، يفترض وجود سامع مقصود بالخطاب. ولذلك فالحديث عن المتكلم هو حديث ضمني عن السامع أيضا"⁴⁴، وهذا ما نجده في أحد أبواب (الصاحبي) تحت "باب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع"⁴⁵، ويؤكد ذلك على التشابك والارتباط الوثيق بين القائل والسامع

باعتبارهما وجها العملية الخطابية، وهذا ما ينطبق على ثنائية الفهم والإفهام، ولذلك يعد تحققها معيار نجاح تلك العملية.

لقد تناولت البلاغة العربية هذا الجانب حيث تمت مناقشة استراتيجية التلقي بكيفية دقيقة اتسمت بالنضج وبعد الأفق، الأمر الذي مكنتها من مضاهاة أحدث ما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في هذا الجانب، الذي ظهر في أحدث صوره المتطورة من خلال ما جاء به الطرح التداولي.

شكل تعامل المخاطب مع المنجز اللغوي سواء أكان مكتوبا أو ملفوظا، أحد المحاور الرئيسة في دراسات وبحوث البلاغيين العرب القدامى، حيث عملوا على توضيح التقنية (أو التقنيات) الناجعة التي تمكن المخاطب من تحصيل المعنى، الذي يعمل فيه على تشريح وحداته اللغوية وتأويل معانيه، وما يترتب على ذلك من عمليات ذهنية واستدلالية، تتوج في الغالب بفهم المخاطب لمقاصد وأغراض المتكلم، وتضمن حصول فهم أمثل.

ولعل أهم تقنية ترتكز عليها عميلتنا الفهم والتأويل - وذلك حسب ما سطرته البلاغة العربية - هي التقنية التي تستمد مقوماتها من مفهوم المقام، فيكون على المخاطب بناء على ذلك مدركا أولا وقبل كل شيء لمقولة لكل مقام مقال؛ أي أن يحلل الخطاب متصلا بظروف وحيثيات إنتاجه بما فيها أحوال منتجه، فلا يقف بذلك عند حدود مستوياته اللغوية: (الصوتية، الصرفية، النحوية، المعجمية) فقط.

5-4 البعد النفعي:

ركزت البلاغة العربية على تمكين مستعمل اللغة من تحقيق غايته المرجوة، حيث يتمكن من إحراز المنفعة التي يسعى إليها من وراء استعمال اللغة في التواصل؛ أي من خلال علاقاته الاجتماعية التواصلية. حيث عملت على وضع المعايير والشروط اللازمة التي يجب على المتخاطبين معرفتها والعمل بها، وقد تعرضت اللسانيات التداولية لهذا الجانب كذلك، حيث ركزت على توضيح قوانين التخاطب التي من شأنها ضمان نجاحه وتحقيق المنفعة.

إلا أن مقياس المنفعة يتجاوز في بعض المواقف أو المعاملات الاجتماعية التواصلية وظيفة الإبلاغ ليقف على وظائف أخرى؛ لعل من بينها التأثير في المخاطب: (إمتاعه أو إقناعه)، ليتطلب ذلك من المتكلم توظيف أدوات وتقنيات ناجعة، وهذا ما ناقشته البلاغة العربية من خلال بحثها في بلاغة النص الأدبي (الشعر، والخطابة)، وهو ما يمثل صورة

البلاغة العربية الأدبية ، وذلك ما نجد في المقاربة التداولية من خلال بحوثها الحديثة ، التي ركزت على دراسة الخطاب أو النص الأدبي تحت ما يعرف بالتداولية الأدبية .

6- خاتمة:

نصل من خلال كل ما سبق ذكره إلى النتائج الآتية:

- ركزت اللسانيات التداولية من خلال دراستها لبعد اللغة الاجتماعي التواصلي على ضرورة ربط بنية اللغة بوظيفتها الأساس ، المتمثلة في التبليغ أو التواصل .
- إن توجه البحث اللساني الغربي من خلال أحدث طروحاته (الطرح التداولي) ، إلى دراسة استعمال اللغة ، هو ما يجده الباحث في تراثنا البلاغي . إذ تعد الرؤية الوظيفية التداولية - وذلك من منطلق التوجه العام بغض النظر عن التميز الإستمولوجي والمنهجي ، والحدود الفاصلة بين الاتجاه اللساني الغربي والاتجاه البلاغي العربي - الطبيعة التي شكلت بنية التفكير البلاغي العربي القديم . فقد انطلق علماءنا من دراسة بعد اللغة الاجتماعي بحدوده وأبعاده الواسعة .

- يمكن القول بناء على ذلك: إن استمرار البلاغة العربية القديمة - التي تميزت بمبادئ وأسس ذات طبيعة وظيفية تداولية ، لتسبق بذلك عصرها بكثير - والعمل على جعلها في مصاف النظريات اللسانية الغربية الحديثة ، ليتمكن بذلك مستعملو اللغة (متكلمون / محاطبون) من الاستفادة منها ، يتوقف على ضرورة تحيينها ، واستثمار ما جاءت به النظريات اللسانية من تقنيات وآليات حديثة أثبتت نجاعتها لاسيما ما يتلاءم معها ، ولعل هذا ما تمثله اللسانيات التداولية أفضل تمثيل .

7- هوامش البحث:

¹ - صلاح الدين صالح حسنين ، الدلالة والنحو ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 1 ، ص 189 .

² - ينظر: أن رويول وجاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني ، مراجعة: لطيف زيتوني ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ط 1: 2003 ، ص 29 .

³ - فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ترجمة: صابر الحباشة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية - اللاذقية ، ط 1: 2007 ، ص 17 .

⁴ - ينظر: الزواوي بغورة ، الفلسفة واللغة ، نقد المنطق اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1: 2005 ، ص 47 .

- ⁵ - جاك موشلر وأن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين التونسيين بإشراف: عز الدين الهجدوب ، مراجعة: خالد ميلاد ، دار سيناترا ، ط: 2010 ، ص 21.
- ⁶ - فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ص 19.
- ⁷ - المرجع نفسه ، ص 18.
- ⁸ - مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، دار الطليعة ، بيروت - لبنان ، ط: 2005: 1 ، ص 16.
- ⁹ - المرجع نفسه ، ص 17.
- ¹⁰ - فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ص 20.
- ¹¹ - ينظر: خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، ط: 2009 ، ص 50.
- ¹² - صلاح إسماعيل ، فلسفة العقل ، دراسة في فلسفة جون سيرل ، دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط: 2007 ، ص 42.
- ¹³ - ينظر: آن روبول و جاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص 29.
- ¹⁴ - ينظر: إدريس مقبول ، الأفق التداولي ، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية ، عالم الكتب الحديث ، إربد - الأردن ، ، ط: 1: 2011 ، ص 09.
- ¹⁵ - مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، ص 40.
- ¹⁶ - ينظر: أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط: 1989 ، ص 20.
- ¹⁷ - جان سيرفوني ، الملفوظية ، دراسة ، ترجمة: قاسم المقداد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ط: 1998 ، ص 7.
- ¹⁸ - ينظر: خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، ص 102.
- ¹⁹ - صابر الحباشة ، لسانيات الخطاب (الأسلوبية والتلفظ والتداولية) ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية - اللاذقية ، ط: 2010 ، ص 25.
- ²⁰ - E , benviniste , problèmes de linguistique général , tome2, Gallimard, paris 1974 , p 80.
- ²¹ - صابر الحباشة ، لسانيات الخطاب (الأسلوبية والتلفظ والتداولية) ، ص 26.
- ²² - مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، ص 30.
- ²³ - كاترين كيربربات أركيوني ، المضمير ، ترجمة: ريتا خاطر ، مراجعة: جوزيف شريم ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت - لبنان ، ط: 2008 ، ص 48.
- ²⁴ - ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ ولسانيات الخطاب ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، المدينة الجديدة - تيزي وزو ، ط: 2: 2012 ، ص 135.
- ²⁵ - ينظر: أحمد المتوكل ، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية ، منشورات عكاظ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط: 1986 ، ص 95.
- ²⁶ - ينظر: عبد اله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، دار الفرابي ، بيروت - لبنان ، ط: 2: 2007 ، ص 27.
- ²⁷ - خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، ص 87.

- ²⁸ - ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2: 2000، ص 65.
- ²⁹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، أدبيات، الشركة المصرية العالمية، ط1: 1996، ص 124.
- ³⁰ - المرجع نفسه، ص 26.
- * - تختلف الآليات التي يوظفها المتلقي أثناء تعامله مع خطاب أو إنتاج لغوي ما، وذلك حسب طبيعة المعاني والمقاصد التي يحملها؛ حيث تكون في الغالب الكثير بين الصريح (الظاهر) الذي يتميز بسهولة الفهم، والمضمر الذي يحتاج فهمه إلى توظيف تقنية التأويل، ولعل هذا ما ينطبق على الخطاب العادي والخطاب الأدبي.
- ³¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5: 1985، ص 136.
- ³² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، ط: 1981، ص 208 و 209.
- ³³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 2000، ص 127.
- ³⁴ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، مكتبة الباي الحلبي وأولاده، مصر، ط2: 1990، ص 95.
- ³⁵ - ينظر: علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط: 2000، ص 57.
- ³⁶ - المرجع نفسه، ص 61.
- ³⁷ - هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال ما قدمه عبد القاهر الجرجاني - لا سيما في دلائل الإعجاز - من خلال حديثه عن النظم، حيث تطرق لتوضيح أسس النظم الجيد التي يقوم عليها الخطاب البلاغي الناجح.
- ³⁸ - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1: 2015، ص 12.
- ³⁹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 163.
- ⁴⁰ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي-ليبيا، ط1: 2004، ص 47.
- ⁴¹ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 1986، ص 135.
- ⁴² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 209.
- ⁴³ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 175.
- ⁴⁴ - المرجع نفسه، ص 166 و 167.
- ⁴⁵ - ابن فارس أحمد زكريا، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشويبي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط: 1963، ص 190.

8 - قائمة المصادر والمراجع:

أ - العربية:

- 1 - أوشان (علي آيت)، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط: 2000.

- 2 - بغورة (الزواوي)، الفلسفة واللغة، نقد المنطق اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1: 2005.
- 3 - بلانشيه (فيليب)، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الجباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية - اللاذقية، ط1: 2007.
- 4 - بوجادي (خليفة)، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1: 2009.
- 5 - الجاحظ (عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5: 1985.
- 6 - الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 2000.
- 7 - الجباشة (صابر)، لسانيات الخطاب (الأسلوبية والتلفظ والتداولية)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية - اللاذقية، ط1: 2010.
- 8 - حسنين (صلاح الدين صالح)، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1.
- 9 - حمو الحاج (ذهبية)، لسانيات التلفظ ولسانيات الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة - تيزي وزو، ط2: 2012.
- 10 - رويول (آن) وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1: 2003.
- 11 - السكاكي (أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، مكتبة البايع الحلبي وأولاده، مصر، ط2: 1990.
- 12 - سيرفوني (جان)، الملفوظية، دراسة، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط: 1998.
- 13 - شاهين (أحمد فهد صالح)، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1: 2015.
- 14 - الصمود (جمادي)، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، ط: 1981.
- 15 - صولة (عبد الله)، الججاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرائي، بيروت - لبنان، ط2: 2007.
- 16 - طه (عبد الرحمن)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2: 2000.
- 17 - بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي - ليبيا، ط1: 2004.
- 18 - العسكري (أبو هلال)، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 1986.
- 19 - ابن فارس (أحمد زكريا)، الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشويبي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 1963.
- 20 - فضل (صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، أدبيات، الشركة المصرية العالمية ط1: 1996.
- 21 - كيربرات أركبوني (كاترين)، المضمهر، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1: 2008.
- 22 - المتوكل أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، منشورات عكاظ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1: 1986.

- 23 - _____ ، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط: 1989.
- 24 - مقبول (إدريس) ، الأفق التداولي ، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية ، عالم الكتب الحديث ، إربد – الأردن ، ، ط: 1: 2011.
- 25 - موشلار (جاءك) ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة: مجموعة من الأساتذة و الباحثين التونسيين بإشراف: عز الدين المجدوب ، مراجعة: خالد ميلاد دار سيناترا ، ط: 2010.
- ب - الأجنبية:
- 26 - E , benviniste , problèmes de linguistique général , tome2, Gallimard, paris 1974